إسهامات علماء جبل عامل في تأسيس العلوم الإسلاميّة وتطويرها - الشهيد الأوّل والشيخ الحر العاملي أنموذجًا-

الشيخ أمين ترمس العاملي[1]

مُستَخلَص:

إنّ تاريخ جبل عامل حافل بالعلماء وزاخر بالمفكّرين الذين كان لهم السبق والريادة في العديد من العلوم الإسلاميّة وغيرها، واسهموا بشكل كبير في رفد الساحة العلميّة الشيعيّة بالكثير من المؤلّفات والكتب الإسلاميّة؛ على الرغم من الظروف الصعبة والفتن العمياء التي عصفت بذلك الجبل الأشمّ وأهله الأشاوس. تلك الظروف التي جعلت الإحاطة بكلّ ما كُتِب وبجميع مَنْ كتب أمر في غاية الصعوبة، ولكنْ؛ وكما يقال: (ما لا يُدرَك كلّه لا يُترَك كلّه)؛ لذا تناولت هذه الدراسة عَالمين عَلَمين ممّن نبغ من جبل عامل؛ وهما:

- الشهيد الأوّل محمد بن مكّي الجزينيّ.

- والحرّ العامليّ محمد بن الحسن المشغريّ الجبعيّ.

(1) باحث في الفكر الإسلاميّ وأستاذ في جامعة المصطفى ﷺ العالميّة، من لبنان.

فلكلٍّ منهما إبداعاته وابتكاراته في مجالات علميّة وفكريّة متعدّدة ومتنوّعة، أغنت التراث الإسلاميّ وزادت من تألّقه.

وهذه الإبداعات توزّعت بين الفقه وأصوله، والحديث وقواعده، والتراجم، والدعاء، والأحاديث القدسيّة، وغير ذلك.

كلمات مفتاحيّة:

تأسيس العلوم الإسلاميّة، تطوير العلوم الإسلاميّة، جبل عامل، علماء جبل عامل، الشهيد الأوّل، الحرّ العامليّ.

مقدِّمة:

إنّ الكلام عن جبل عامل عمومًا، وعن علمائه خصوصًا، يُعدّ من الأمور الشيّقة والشاقّة؛ شيّقة؛ لأنّ تاريخه حافل بالمواقف المشرّفة والبطولات المخلّدة، وشاقّة؛ لأنّ إحصاء كلّ الأحداث، والإلمام بكلّ المواقف على مرّ تاريخه الطويل، أمرٌ في غاية الصعوبة، حيث إنّ ما وصلَنا هو قلّة قليلة من تلك الصفات المضيئة؛ بسبب الظلم والجور الذي عاناه وعايشه أهل ذلك الجبل، فما من غازٍ أو محتلٍ؛ إلا وكان له أطماعٌ في أرضه ومائه وخيراته، وكان أهله على الدوام يستبسلون في الدفاع عن أرضهم وعرضهم، ويتصدّون للمعتدين وينزلون بهم أشدّ الضربات وأفدح الخسائر، وهكذا كانت تتوالى الأحداث والمحن على الناس في جبل عامل، وكان لعلمائهم الحظّ الأوفر والسهم الأعلى من ذلك الظلم والقمع، فإنّهم على الدوام كانوا قادة المسيرة وروّادها، وفي طليعة المعترضين والمقاتلين والصامدين في وجه الغزاة. والتاريخ يشهد بذلك إلى ما قبل حكم الأمويّين، ثمّ هم ومن جاء بعدهم من العبّاسيّين والعثمانيّين؛ مرورًا بالحملات الصليبيّة، وظلم المماليك وتعسّفهم؛ وصولًا إلى الاحتلال الفرنسيّ[1]، وأخيرًا الاحتلال الصهيونيّ، ففي جميع هذه العصور، وقعت العديد من الحروب والغزوات، وذهب ضحيّتها الكثيرُ من الأبرياء؛ وفي مقدّمتهم العلماء، ويكفي أنّ الشهيدين: الأوّل والثاني من علماء الإماميّة، قد نبتوا في هذا الجبل الأشمّ والشامخ وبزغوا منه.

تخرّجَ من جبل عامل المئات من العلماء في كلّ زمن، وكان لهم السبق والريادة في شتّى العلوم؛ وخصوصًا الإسلاميّة منها.

(1) انظر: الفقيه، محمد تقي: جبل عامل في التاريخ، ط1، بيروت، دار الأضواء، 1986م، ص255، فما بعدها؛ الأمين، محسن: خطط جبل عامل: تحقيق: حسن الأمين، ط1، بيروت، دار المحجّة البيضاء، 2002م، ص63، فما بعدها؛ آل صفا، محمد جابر: تاريخ جبل عامل، بيروت، دار النهار، 1998م، الفصل الأوّل، ص71؛ الفصل الثاني، ص81؛ الفصل السادس، ص144.

وذكر الشيخ محمد بن الحسن الحرّ العامليّ في كتابه «**أمل الأمل**»: «... وقد سمعت بعض مشايخنا أنّه اجتمع في جنازة في قرية من قرى جبل عامل سبعون مجتهدًا في عصر الشهيد وما قاربه...»؛ ومراده من الشهيد هو الشهيد الأوّل محمد بن مكّي الذي استشهد سنة 786هـ ثمّ أردفَ قائلًا: «... إنّ عدد علمائنا [أي أهل جبل عامل] يقارب خُمس عدد علماء المتأخّرين، وكذلك مؤلّفاتهم بالنسبة إلى مؤلّفات الباقيين، مع أنّ بلادهم بالنسبة إلى باقي البلدان أقلُّ من عُشر العشر- أعني جزء من مئة جزء من البلدان...»[1].

وأضاف أيضًا: «**... كثرة من خرج من جبل عامل من العلماء والفضلاء والصلحاء وأرباب الكمال، وستعرف جملةً منهم مع أنّي لم أطلّع على الجميع ولا على مؤلّفاتهم كلّها، ولا يكاد يوجد من أهل بلاد أخرى من علماء الإماميّة أكثر منهم، ولا أحسن تأليفًا وتصنيفًا، ولقد أكثر مدحهم والثناء عليهم القاضي نور الله في مجالس المؤمنين، وذكر أنّه ما من قرية هناك إلا وقد خرج منها جماعة من علماء الإماميّة وفقهائهم...**»[2].

وتعرّض أهل جبل عامل إلى أشدّ المعاناة في زمن الأمويّين، ثم البيزنطيّين عندما استولوا على المدن والقرى في أواخر زمن معاوية، وكذلك زمن حكم العباسيّين، والسلاجقة، والصليبيّين، والأيوبيّين؛ مرورًا بالمماليك، والعثمانيّين والاحتلال التركي، الذي دام قرون عدّة، ثمّ الاحتلال الفرنسيّ؛ وانتهاءًا بالاحتلال الصهيونيّ، ففي كلّ تلك الفترات كان لعلماء جبل عامل الحظّ الأوفر من القتل والأسر والملاحقة والتنكيل بهم، فقتلوا العديد منهم وأحرقوا الكثير من المكتبات والمدارس العلميّة؛ كلّ ذلك بسبب تمسّكهم بولائهم لآل البيت عليهم السلام، ولأنّهم لم يخضعوا لظالم ولم يساوموا محتلًّا.

(1) الحرّ العاملي، محمد بن حسن: أمل الآمل، تحقيق: أحمد الحسين، ط2، بيروت، 1403هـ ج1، ص15.
(2) م.ن، ج.ن، ص.ن، ج1، ص15.

وإحصاء جميع العلماء، من الذين كانت لهم بصمات مشرقة وجهود مميّزة من الإبداع العلميّ والنبوغ الفكريّ والعبقريّة الفذّة والأخّاذة في العديد من الحقول العلميّة، أمر في غاية الصعوبة - إن لم يكن مستحيلًا- فهو متعذّر خصوصًا مع ضياع الكثير من التراث. لكنْ (ما لا يُدرَك كلّه لا يُترَك جلّه)، لذا، سأقف عند عالِمين عَلَمين من أولئك الأساطين، وأقدّمهما أنموذجًا للقارئ على إسهامات علماء جبل عامل في تأسيس العلوم الإسلاميّة وتطويرها؛ وهما: الشهيد الأوّل، والحرّ العامليّ.

أولًا: الشهيد الأوّل.. حياته ومكانته العلميّة وإسهاماته في مجال العلوم الإسلاميّة:

1. نبذة عن حياته ومكانته العلميّة:

هو الشيخ الشهيد السعيد شمس الدين أبو عبد الله محمد بن مكّيّ العامليّ الجزينيّ. ولد سنة 734هـ على المشهور، أو 724هـ على المنصور، في قرية جزين من قرى جبل عامل، ونشأ فيها وحضر عند علماء تلك البلاد، ثمّ سافر إلى العراق سنة750هـ وحضر عند تلامذة العلّامة الحلي، وأبرزهم ابن العلّامة فخر المحقّقين، محمد بن الحسن بن يوسف المتوفّى سنة 771هـ. وجاب البلاد طولًا وعرضًا، شرقًا وغربًا باحثًا عن العلم والعلماء، فحضر عند العشرات منهم من مختلف المذاهب، وأخذ منهم الإجازة في نقل الرواية، وأجاز الكثير منهم بها، وفاق جميع أقرانه ومشايخه ومن تقدّم عنه بكثرة مَنْ روى عنهم وأخذ منهم، حتى أنّه ذكر في آخر إجازته لابن الخازن التي كتبها له سنة 784هـ في دمشق، فقال: «... فليرو مولانا زين الدين علي بن الخازن -أدام الله تعالى بركاته- جميع ذلك إنْ شاء بهذه الطرق وغيرها؛ بما يزيد عن الألف»[1].

(1) المجلسي، محمد باقر: بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمّة الأطهار عليهم السلام، ط3، بيروت، 1403هـ ج107، ص192؛ النوري، حسين: خاتمة مستدرك الوسائل، تحقيق ونشر: مؤسّسة آل البيت عليهم السلام، ط1، قم المقدّسة، 1416هـ ج20، ص295.

وهذه الألف طريق لا تعني بالضرورة ألف شيخ، وإنّما يُفهَم منها كثرة مشايخه.

وبعد سفرات عديدة وغياب مدّة طويلة، عاد وسكن في بلده جبل عامل في حدود سنة 760هـ وأسّس مدرسة علميّة رائدةٍ في جزين، وقام بدوره مدرّسًا ومشرفًا على الحوزة وغيرها من المدارس الدينيّة، فأصبح جبل عامل مقصدًا لطلاب العلم من مختلف البلاد حتّى البعيدة، وكان يرشد الناس ويبلّغ الدّين الحقّ، ويتصدّى للمنحرفين والضالّين المُضلّين ويقف في وجههم، ولو بقوّة السلاح - وفتنة اليالوشي تشهد على ذلك[1] -، وينشر الوكلاء في المناطق ويسيّر الأمور على أحسن ما يرام، وعاش الناس في ظلّ رعايته بأمن وأمان على دينهم ودنياهم، حتّى حسده البعض، وحقد عليه آخرون من علماء بلاط السلطان، فلفّقوا له التُهم، وزوّروا الوقائع، وأيقظوا الفتن، فأُلقي القبض عليه سنة 785هـ وحُبس في قلعة دمشق مدّة سنة، ثمّ عقدوا مجلسًا ترأسه كبار قضاة المذاهب من الذين مُلئت قلوبهم حقدًا وحسدًا له ولمذهبه، وقرّروا الانتقام منه، فدبّروا له محاكمةً صُوَرِيّةً وبزعمهم شرعيّة، لكنّها فاقدة لأدنى المعايير الإنسانيّة، وحكموا عليه بالإعدام، فضُرب عنقه بسيف العصبيّة المذهبيّة، تحت قلعة دمشق، ثمّ صُلِبَ ورُجِم، ثمّ أُحرق ولم يُترَك له أثر، أو يُشيَّد له قبر، وكان ذلك في التاسع من جمادى الأولى سنة 786هـ.

ولمعرفة منزلة هذا الشهيد السعيد وقدره على الساحة العلميّة وفي قلب الأمّة الإسلاميّة، سأنقل بعض ما قاله نخبة من علماء الفريقين في مدحه والثناء عليه:

أ. كلام فخر المحقّقين:

قال شيخه فخر المحقّقين الشيخ محمد ابن العلاّمة الحلّي في إجازة له

(1) انظر: العامليّ، محمد بن مكّيّ (الشهيد الأوّل): الدروس الشرعيّة في فقه الإماميّة، قم المقدّسة، دار النشر التابعة لجماعة المدرّسين، 1417هـ ج1، ص64، مقدّمة المحقّق.

سنة 756هـ: «مولانا الإمام العلامة الأعظم أفضل علماء العالم سيّد فضلاء بني آدم مولانا شمس الحقّ والدين محمد بن مكّي بن محمد بن حامد أدام الله أيّامه...»[1].

فبناء على أنّ مولده كان سنة 734هـ؛ كما هو المشهور، فيكون عمره حين الإجازة 22 سنة.

وعلى القول الثاني المنصور أنّه ولد عام 724هـ، فيكون عمره 32 سنة، وإذا كان كلام فخر المحقّقين أمرًا عجيبًا على القول الأوّل، فهو ليس غريبًا على القول الثاني.

ب. كلام المحقّق الثاني:

قال المحقّق الثاني الشيخ الكركي في إجازته للشيخ علي بن عبد العالي الميسيّ، وعندما وصل في السند إلى الشهيد وصفه؛ بقوله: «شيخنا الإمام شيخ الإسلام فقيه أهل البيت عليهم السلام في زمانه ملك العلماء، علم الفقهاء، قدوة المحقّقين والمدقّقين، أفضل المتقدّمين والمتأخّرين، شمس الملّة والحقّ والدين، أبي عبد الله محمّد بن مكّيّ مستكمل صفوف السعادة، حائز درجة الشهادة قدّس الله روحه الطاهرة الزاكية، وأفاض على مرقده المراحم الربّانيّة...»[2].

أكتفي بهذين العَلمين من الشيعة، وحتّى لا يقال إنّ الشهيد هو هكذا في نظر علماء مذهبه، وهذا أمر طبيعيّ بين علماء المذهب الواحد، لذا سأتعرّض لما قاله أحد علماء أهل السنّة في حقّ الشهيد، وهذا أبلغ في الثناء وأبعد عن الرياء، علمًا أنّ عددًا من علماء أهل السنّة هم ممّن عاصروا الشهيد وأجازوه، أو ممّن جاء بعده وسمع بفضله ومآثره.

(1) المجلسيّ، بحار الأنوار، م.س، ج107، ص178.
(2) م.ن، ج108، ص32.

ج. كلام الشيخ الكرمانيّ الشافعيّ:

قال الشيخ محمد بن يوسف القرشيّ الكرمانيّ الشافعيّ الملقّب بشمس الأئمّة، وصاحب الشرح المعروف على صحيح البخاري والموسوم بـ (الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري) والمتوفّى سنة 786هـ وأجاز الشهيد في بغداد سنة 785هـ ووصفه بقوله: «المولى الأعظم الأعلم إمام الأئمّة صاحب الفضلين، مجمع المناقب والكمالات الفاخرة، جامع علوم الدنيا والأخرة، شمس الملّة والدين، محمد ابن الشيخ العالم جمال الدين مكّيّ بن شمس الدين محمّد الدمشقيّ رزقه الله أُولاه وأخراه ما هو أولاه وأحراه...»[1].

إذن شخصيّة الشهيد قدس سره كانت فريدة وقلّ نظيرها، فهو تتلمذ على كبار علماء عصره من الشيعة وأهل السنّة والمتخصّصين في كلّ فنّ من الفنون، وجدّ وسعى بهمة عالية لبلوغ أعلى الدرجات العلميّة والأخلاقيّة.

2. إسهاماته في مجال العلوم الإسلاميّة:

تميّز الشهيد الأوّل قدس سره في العديد من العلوم، وبرع وأبدع في حقول علميّة لم يسبقه أحد قبله إليها، أشير إلى بعضها:

أ. الفقه:

بلغ الشهيد قدس سره درجة من الفقاهة أغتُبط عليها من كبار العلماء؛ بحيث كان تميّزه في علم الفقه ودقّته وبراعته محلّ إجماع بينهم.

قال السيّد محمد باقر الخوانساري الأصفهاني (ت: 1313هـ): «... أفقه جميع فقهاء الآفاق وأفضل من عقد على كمال خبرته وأستاذيّته، اتّفاق أهل الوفاق وتوحّده في حدود الفقه وقواعد الأحكام»[2].

(1) المجلسيّ، بحار الأنوار، م.س،ج107، ص183.
(2) الخوانساري، محمد باقر: روضات الجنّات، قم المقدّسة، 1390هـ،ج7، ص3.

وقال المحدث الميرزا الشيخ حسين النوري (ت: 1320هـ): «... اعلم أنّه - رحمه الله- أوّل من لُقب بالشهيد، وأوّل من هذّب كتاب الفقه عن نقل أقاويل المخالفين، وذِكر آراء المبدعين، وقد أكمل الله تعالى له النعمة، فجعل العلم والفضل والتقوى فيه وفي ولده وأهل بيته»[1].

وقال الشيخ محمد حسن صاحب كتاب الجواهر (ت: 1266هـ) في معرض كلامه في كتاب الصلاة: «... ويكفيك أنّ الشهيد قدس سره مع شدّة تبحّره وحسن وصوله إلى المطالب الغامضة...»[2].

وقال السيّد محسن الأمين العامليّ (ت: 1371هـ) في ترجمة الشهيد الثاني قدس سره بعنوان (الموازنة بينه وبين الشهيد الأوّل): «... الشهيد الأوّل أفقه وأدقّ نظرًا، وأبعد غورًا، وأكثر وأمتن تحقيقًا وتدقيقًا، يظهر ذلك لكلّ مَنْ تأمّل تصانيفهما، مع الاعتراف بجلالة قدر الشهيد الثاني وعظمة شأنه وعلوّ مقامه»[3].

وقال سيّد فقهاء العصر السيّد الخوئي قدس سره (ت: 1413هـ) في مسألة المبيع الكلّيّ، وما نقله الشهيد عن الشيخ الطوسي: «... فلو كان هنا إجماع لم يذكر الشهيد قدس سره ذلك. وواضح أنّ الشهيد ممتاز في فهم كلمات الفقهاء، بل قيل: ... إنّه لسان الفقهاء...»[4].

وقد تجلّت إبداعات الشهيد العلميّة؛ خصوصًا الفقهية منها، في كتب وأبحاث عدّة له، وطرح آراءه التجديديّة وابتكاراته العلميّة في كتبه: اللُمعة، والذِكرى، والقواعد والفوائد، والألفيّة، والنفليّة، والدروس، وغاية المراد، وغيرها ممّا جادت به عبقريّته الفذّة.

(1) النوريّ، خاتمة مستدرك الوسائل، م.س، ج20، ص306.
(2) النجفي، محمد حسن: جواهر الكلام في شرح شرائع الإسلام، ط6، طهران، 1398هـ ج5، ص573.
(3) الأمين: محسن: أعيان الشيعة، ط5، بيروت، 1403هـ ج7، ص147.
(4) الخوئي، أبو القاسم: مصباح الفقاهة، ج7، ص21.

وهنا أسلّط الضوء على بعض هذه الإبداعات:

2. التأسيس العلميّ لحاكميّة الفقيه:

بعد استشهاد الإمام الحسن العسكريّ عليه السلام، وانتهاء الغيبة الصغرى، دخل المجتمع الشيعيّ ببُعديه: الفكريّ والسياسيّ في مرحلة جديدة فرضت واقعها على الساحة العلميّة الإماميّة، فكان من البعيد جدًّا، بل من المتعذّر أن يتولّى أي شخص السلطة أو يمارس الحاكميّة بوجه شرعيّ، وإلا كان يُعدّ غاصبًا لحقّ الإمام المعصوم عليه السلام، وإنّما كان السائد حينها ثقافة الانتظار والاستعداد لظهور الإمام |. ومن هنا كانت بعض الآراء الفقهيّة تلزم المكلّفين بحفظ الأخماس والحقوق الشرعيّة ونحوها إلى حين الظهور، وحصر إقامة الحدود والتعزيرات بحضور الإمام عليه السلام أو نائبه الخاصّ، هذا وإنْ وجدت بعض العبارات في المدرسة الحلّيّة، لكنّها لا تعدو كونها آراء علميّة لم تخرج عن صفحات الكتب الفقهيّة، وما فعله الشهيد قدس سره -وهو بلا ريب متأثّر بأفكار المدرسة الحلّيّة- هو إقامة الحكومة الشرعيّة وتطبيق الأحكام الإلهيّة.

وكانت آنذاك ولاية الفقيه ولاية خاصّة يقول بها الكثير من العلماء، وولايـة عامّة قال بها آخـرون؛ وهي عندهم أنّ للفقيه ولايـةً كولاية المعصوم عليه السلام على الأمّة؛ إلا ما خرج بالدليل، وهذه الولاية تنبثق من واقع التشريع الإسلاميّ، وللفقيه صلاحيّات في معالجة أمور الأمّة التي تحتاج إليها؛ وهو ما يعبّر عنه بـ (منطقة الفراغ) أو (الأحكام المتغيّرة)؛ فإنّ الشريعة تركت للفقيه أو من يتولّى السلطة الشرعيّة مساحة يستطيع من خلالها أنْ يتحرّك لمعالجة جملة من الأمور التي تحتاجها الأمّة؛ مراعيًا في ذلك أحكام الشريعة ومصالح الأمّة، وبحق يقال: إنّ ولاية الفقيه تعدُّ جوهر الفكر السياسيّ الشيعيّ.

ومن مميّزات الشهيد قدس سره أنّه كان قائلًا بولاية الفقيه العامّة، بل هو

أوّل مَنْ قال بها، وجسّدها على أرض العمل، وأبدع في المزاوجة بين النصّ والواقع، وأوجب دفع الأخماس إلى نوّاب الإمام الحجّة ﷺ؛ وهم الفقهاء الجامعين لشرائط الفتوى؛ وهو واحد منهم.

قال في كتابه (الدروس): «ويجب دفع الزكاة إلى الإمام أو نائبه مع الطلب؛ وإلا استحبّ، وفي الغيبة إلى الفقيه المأمون؛ وخصوصًا الأموال الظاهرة...»[1].

وقال في موضع آخر : «... والحدود والتعزيرات إلى الإمام ونائبه؛ ولو عمومًا، فيجوز حال الغيبة للفقيه الموصوف بما يأتي في القضاء إقامتها مع المكنة، ويجب على العامّة تقويته ومنع المتغلّب عليه مع الإمكان، ويجب عليه الإفتاء مع الأمن، وعلى العامّة المصير إليه والترافع في الأحكام، فيعصي مؤثّر المخالف ويفسق، و لا يكفي في الحكم والإفتاء التقليد»[2].

وقال في موضع ثالث: «... وفي غيبة الإمام ينفذ قضاء الفقيه الجامع للشرائط، ويجب الترافع إليه، وحكمه حكم المنصوب من قِبَل الإمام خصوصًا»[3].

وقريب من هذا في كتابه (القواعد والفوائد)[4]. ومن هنا أرسل الوكلاء إلى المدن والنواحي والقرى حتّى وصل وكلاؤه إلى خارج حدود جبل عامل، فكانت تُجبَى إليه الأموال ويصرفها هو في وجوهها على مستحقّيها، وتلك الأمور لم تكنْ معروفةً في المجتمعات الشيعيّة بهذا الشكل من الحكم بشرع الله تعالى، وإقامة الحدود ومحاربة الفساد وغير ذلك من الأمور الحاكميّة بقيادة عالم وفقيه بمستوى الشهيد الأوّل، وهذا من أهمّ

(1) الشهيد الأوّل، الدروس الشرعيّة في فقه الإماميّة، م.س، ج1، ص246
(2) م.ن، ج2، ص48.
(3) م.ن، ج2، ص67.
(4) العامليّ، محمد بن مكّيّ (الشهيد الأوّل): القواعد والفوائد، تحقيق: عبد الهادي الحكيم، قم المقدّسة، مكتبة المفيد، 1400هـ ج1، ص405، قاعدة 147.

الأسباب التي أثارت عليه حنق الحكّام وحسد علماء السلطان، فحكموا عليه بالكفر، ثمّ أُعدم بسيف العصبيّة المذهبيّة؛ كما تقدّم.

والشهيد قدس سره باستحداثه لهذا النظام الخاصّ لجباية الأخماس والأموال الشرعيّة من خلال توزيع الوكلاء والعلماء على المناطق في جبل عامل وخارجه، فإنّه بذلك يكون أوّل من ابتكر هذا النظام بتلك الكيفيّة الخاصّة، التي أسهمت بشكل كبير في ربط الفقيه المتصدّي الجامع للشرائط بالأمّة بواسطة شبكة من العلماء والوكلاء الموزّعين على المناطق، وهذه منه قدس سره رؤية علميّة متقدّمة، ونظرة تدبيريّة حكيمة في إدارة شؤون البلاد والعباد في زمن غيبة الإمام المعصوم عليه السلام.

ولا يخفى كم كان لهذا العمل من قِبَل الشهيد في الحفاظ على التشيّع في تلك البلاد؛ خصوصًا في ظلّ الأوضاع المتأزّمة في ذلك الوقت.

3. كتاب القواعد والفوائد:

إنّ البحث في القواعد الفكريّة، له أهمّيّةٌ؛ خاصّةٌ كونها أحكامًا كلّيّة تندرج تحت كلٍ منها تطبيقات جزئيّة، وفي أبواب مختلفة من الفقه، وهي مصدر مهمّ من مصادر الاجتهاد، ومساحة خصبةٌ من مساحات الفقه، يستطيع الفقيه أنْ يستخرج منها أحكامًا لفروع فقهيّة جديدة.

قال الشهيد قدس سره عن هذا الكتاب في إجازته لابن الخازن التي كتبها له سنة 784هـ: «... فما صنّفتُه، كتاب القواعد والفوائد في الفقه مختصرٌ يشتمل على ضوابط كلّيّة: أصوليّة وفرعيّة، تستنبط منها أحكام شرعيّة لم يُعمل للأصحاب مثله»[1].

ووصف هذا الكتاب الشيخ محمد بن علي الحرفوشيّ العامليّ (ت/1059هـ) في شرحه له باسم (القلائد السَنيّة على القواعد الشهيديّة)

(1) المجلسيّ، بحار الأنوار، م.س، ج107، ص187.

بقوله: «إنّ كتاب القواعد... كتابٌ لم ينسج أحد على منواله ولم يظفر فاضلٌ بمثله، انطوى على تحقيقات هي لطائف الأسرار، واحتوى على اعتبارات هي عرائس الأفكار»[1].

وقد احتوى الكتاب على ما يقرب من ثلاثمئة وثلاثين قاعدة كان الطابع الفقهي غالبًا عليها؛ مضافًا إلى فوائد تقرب من مئة فائدة؛ منها في علم أصول الفقه، واللغة العربية، هذا عدا التنبيهات والفروع الأخرى التي ذكرها تعقيبًا على تلك القواعد، ومنهجه في الكتاب «هو أنّه يُورِد القاعدة أو الفائدة، ثمّ يبيّن ما يندرج تحتها من فروع فقهيّة، وما قد يرِد عليها من استثناءات؛ إنْ كان هناك استثناء منها، وهو لم يقتصر على بيان رأي الإماميّة في ما يذكره من المسائل، وإنّما اتّخذ المقارنة في أغلب الفروع الفقهيّة، فيعرض ما قيل من الوجوه؛ سواء كان القائل إماميًّا أم غيره، ممّا يدلّ على سعة اطّلاعه وإحاطته بآراء الفقهاء على اختلاف مذاهبهم...»[2].

4. إبداعه في ترتيب الأبواب والمسائل الفقهيّة:

لقد استفاد الشهيد قدس سره من خلال اطّلاعه على فقه الخاصّة في الحوزات والمدارس العلميّة؛ خصوصًا في الحلّة، وكذلك على فقه أهل السنّة؛ خصوصًا في بلاد الشام، فتكوّنت لديه رؤية خاصّة في منهجه الفقهيّ، ثمّ أدخل بعض التعديلات الإبداعيّة عليه، فمثلًا أضاف الشهيد في كتاب الدروس عناوين جديدة للكتب والأبواب الفقهيّة؛ الأمر الذي لم يكن معروفًا قبل ذلك، أو مذكورًا في كتب الأصحاب من قبل، وذلك مثل كتب: (المزار)، (الحسبة)، (المحارب)، (القسمة)، (المشتركات)، (الربا)، و(تزاحم الحقوق)[3].

(1) الروضاني، محمد علي: فهرس مخطوطات مكتبات أصفهان، ط1، أصفهان، 1382هـ ج1، ص257.
(2) الشهيد الأوّل، القواعد والفوائد، م.س، ج1، ص8، مقدّمة المحقّق.
(3) انظر: مختاري، رضا، الشهيد الأوّل حياته وآثاره، ط1، قم المقدّسة، 1438هـ ص68.

ولقد أورد العلامة الحلّيّ في آخر كتاب الصلح فروعًا تبدو غريبةً وليست ذات صلة بكتاب الصلح، لكنّ الشهيد أوردها بعنوان مستقلّ؛ أي كتاب (تزاحم الحقوق)، وهو بذلك أوّل مَن تصدّر في وضع هذه الفروع بهذه العناوين، ولم يسبقه إليه أحد.

وهو أوّل مَن ذكر مسألة حكم الحاكم في رؤية الهلال في فقه الشيعة[1].

وقد فاق في دقّته وابتكاره لطرح المسائل العلميّة وصياغة التعابير الفقهية مَن تقدّمه من الفقهاء، فمثلًا قال العلامة الحلّيّ في عدّ الصلوات الواجبات: «فالواجبات تسع: اليوميّة، والجمعة، والعيدان، والكسوف، والزلزلة، والآيات، والطواف، والأموات، والمنذور وشبهه»[2].

وأمّا الشهيد، فقد قال في العنوان نفسه: «والواجب سبع: «اليوميّة، والجمعة، والعيدان، والزلزلة، والآيات، والطواف، والأموات، والملتزم بنذر وشبهه»[3].

واعترض المحقّق الكركي على العلاّمة الحلّيّ بقوله: «ويرِد عليه أنّ الكسوف والزلزلة داخلتان في الآيات، فعدّهما قسيمين لها من عيوب القسمة... وعدَّ المنذور قسمًا وشبهه قسمًا آخرَ، ولو أنّه عدّهما قسمًا واحدًا وعبّر عنهما بعبارة واحدة؛ كما صنعه الشهيد حيث عبّر بـ(الملتزم بنذر وشبهه) لكان أولى...»[4].

وقد ردّ الشهيدُ الثاني على العلاّمة أيضًا بقوله: «وفي عدّ الكسوف والزلزلة والآيات أقسامًا ثلاثةً، إشكالٌ؛ لأنّ الآيات تشملها، فجعلُ بعض

(1) انظر: مختاري، الشهيد الأوّل حياته وآثاره، م.س، ص68.
(2) الحلّي، حسن بن يوسف بن المطهّر (العلامة الحلّي): قم المقدّسة، بالأوفست على طبعته الحجريّة، 1404هـ ج1، ص24.
(3) العامليّ، محمد بن مكّيّ (الشهيد الأوّل): اللمعة الدمشقيّة، ص33.
(4) الكركي، علي: جامع المقاصد في شرح القواعد، تحقيق ونشر: مؤسّسة آل البيت عليهم السلام، ط1، قم المقدّسة، 1408هـ ج2، ص7.

أقسام الشيء قسيمًا له لا يستقيم، فالأولى عدّها قسمًا واحدًا لتصيرَ الأقسام سبعة؛ كما صنعه الشهيد رحمه الله»[1].

ومن سَبَر كتب الفقهاء قبل الشهيد، وقارن ذلك بما في كتب الشهيد، يجد أمثال هذه الفروقات كثيرةً.

ثانيًا: الحرّ العامليّ.. حياته ومكانته العلميّة وإسهاماته في مجال العلوم الإسلاميّة:

1. نبذة عن حياته ومكانته العلميّة:

هو محمّد بن الحسن بن علي بن محمّد بن الحسين الحرّ العامليّ المشغريّ الجبعيّ الطوسيّ، وقد اشتهر: بالحرّ العاملي، وبصاحب الوسائل.

ولد في الثامن من شهر رجب سنة 1033هـ في بلدة مشغرى[2] من قرى البقاع الغربيّ على ضفاف جبل عامل، وهو ينحدر من أسرة عُرفت بالعلم والعلماء، ونبغ فيهم الكثير من المفكّرين والأدباء وحملة لواء العلم والتحقيق.

المشهور أنّ نسب العائلة يرجع إلى الشهيد الحرّ بن يزيد الرياحيّ الذي استشهد بين يدي الإمام الحسين عليه السلام في كربلاء.

ظهر نبوغ الشيخ الحرّ في سنٍ مبكّر، فقد جمع الصحيفة السجاديّة الثانية في شهر رمضان سنة 1053هـ[3]؛ أي كان في العشرين من عمره، كما أنّه كتب كتابه (الجواهر السَنيّة) عندما كان في الثالثة والعشرين، فقد فرغ منه سنة 1056هـ وكذلك نظمَ في السنة نفسها منظومةً في علم الهندسة بلغت 167 بيتًا.

(1) العامليّ، زين الدين بن علي (الشهيد الثاني): روض الجنان في شرح إرشاد الأذهان، قم المقدّسة، بالأوفست على طبعته الحجريّة في طهران، 1307هـ ج2، ص474.

(2) الحرّ العامليّ، أمل الآمل، م.س، ج1، ص141.

(3) انظر: الطهرانيّ، محمد محسن: الذريعة إلى تصانيف الشيعة، ط1، النجف الأشرف، 1398هـ ج15، ص19، رقم 96.

وقد أجازه شيخه وأستاذه حسين بن الحسن بن يونس بن ظهر الدين العامليّ سنة 1051هـ؛ وهو في سنّ الثامنة عشرة سنة؛ وهو أوّل من أجازه[1].

سافر سفرات عدّة إلى حجّ بيت الله الحرام، وإلى زيـارة مراقد الأئمّة عليهم السلام في المدينة المنوّرة، والعراق وإيران، كما زار أصفهان وشيراز والبحرين والبصرة، والتقى بالعديد من العلماء في تلك البلاد، وأجاز بعضهم وأخذ الإجازة من بعضهم، وفي أصفهان كان له لقاء مع الشيخ محمد باقر المجلسيّ، وأجاز كلٌّ منهما الآخر؛ وهو ما يعرف بالإجازة المدبَّجة.

وما لا شكّ فيه، أنّ هذه الرحلات وزيارة تلك المدن والمدارس العلميّة، ولقاءه بالعلماء والمحدّثين كان له الأثر الكبير في اطّلاعه الواسع على كثير من العلوم والفنون، وخصوصًا مكوثه لمدّة طويلة في بلاد إيران، وأخذه من ثقافتها وأدبها الفارسيّ الموصوف، ثمّ سكبه بقوالب من اللغة العربيّة -وهو الخبير بها- كلّ ذلك جعل منه عالمًا ومحدّثًا وأديبًا بارعًا لا يدانيه أحد ممّن عاصره في تلك الخصال.

ومع حبّه لوطنه وأرضه وبلده وأهله، وهذا واضح من كتابه «**أمل الآمل**» وتأريخه لعلماء جبل عامل، لكنّه أُرغم على ترك جبل عامل بسبب الظلم الذي حلّ بأهله، وبسبب العصبيّة المذهبيّة التي فتكت بالنّاس، خصوصًا العلماء، فقُتِل مَنْ قُتِل، وأُحرقت المكتبات، وفرّ مَنْ نجا منهم، وكانت بلاد إيران أيّام الدولة الصفويّة هي المكان الذي يكاد يكون الوحيد في الدنيا يشعر فيه الموالون لأهل البيت عليهم السلام بالأمان والطمأنينة؛ فلذا لم يكنْ أمام الشيخ الحرّ العامليّ أفضل من هذا الخيار؛ فيمّم وجهه نحو بلاد إيران؛ ليحلّ ضيفًا مكرَّمًا على حاكمها الصفويّ، ويتبوّأ منصب شيخ الإسلام الذي هو أعلى منصب دينيّ في تلك البلاد.

(1) انظر: الحرّ العامليّ، خاتمة وسائل الشيعة، م.س، ج30، ص170؛ الحرّ العامليّ، أمل الآمل، م.س، ج1، ص70.

وقد قام في ظلّ الدولة الصفويّة بواجبه الديني خير قيام، واستفاد من كلّ الفرص والطاقات التي أُتيحت له لنشر الدّين وإيصال صوت الحقّ إلى أكبر شريحة ممكنة من الناس، إلى أنْ وافته المنيّة في 21 من شهر رمضان المبارك سنة 1104هـ في جوار ثامن أئمّة أهل البيت عليهم السلام، الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام، ودُفن بالقرب من مرقده الشريف عليه السلام.

كلمات العلماء في حقّه:

أنْ تقرأ في كتب التراجم والتاريخ مدحًا وثناءً لأشخاص قد مضوا وماتوا فهذا أمر مألوف وعادي، ولكنْ أن تقرأ وتسمع أنّ شخصًا مُدِح من مُعَاصرِيه وزملائه فهذا أمرٌ ليس عاديًّا، وهذا ما نشاهده في ترجمة الحرّ العامليّ، فإنّ علماء مشهورين ممّن عاصروه قالوا في حقّه كلمات، وترجموها بعبارات من الثناء والإطراء قلّما تُسمع من معاصر لمثله؛ وهذا ما نجده في ترجمة الشيخ الحرّ، وبالرجوع إلى كلمات كلٍ من معاصريه؛ كالعلامة الشيخ محمد باقر المجلسي (ت: 1111هـ)، والعلامة الميرزا عبد الله الأفندي (ت: 1130هـ)، والعلامة الشيخ محمد بن علي الأردبيلي الغرويّ الحائريّ (ت: 1100هـ)، والعلامة السيد علي خان المدنيّ الشيرازيّ (ت: 1120هـ) وغيرهم، نلمس بوضوح صحّة هذه الدعوة، وإنّما ذَكرت هؤلاء ممّن عاصروه واطّلعت على أقوالهم، وغيرهم كثر ممّن لم أطّلع على ما قالوه، أو لم يصل إلينا ما كتبوه.

وأمّا الذين جاءوا من بعده، فلم يخلو كتاب من ذِكره بالثناء الجميل، والمدح الجليل، أكتفي بما ذكره العلامة الأميني في كتابه الخالد (الغدير)، فبعد الثناء على عائلة آل الحرّ، قال: «... وأشهرهم في تلكم الفضائل كلّها شيخنا المترجَم له الذي لا تنسى مآثره، ولا يأتي الزمان على حلقات فضله الكثار، فلا تزال متواصلة العرى... فشيخنا المترجَم له درّة على تاج الزمن، وغرّة على جبهة الفضيلة، ولقد تقاصرت عنه جمل المدح وزمر الثناء،

فكأنّه عاد جثمان العلم وهيكل الأدب وشخصيّة الكمال البارزة...»[1].

والجامع المشترك بين مَنْ ترجم له وأثنى عليه هو وصفهم له بالأديب والشاعر والمحدّث والفقيه، وفي الواقع هو فوق ما قالوه من أوصاف، وأرفع ممّا ذكروه من ألقاب، لكنّ ميزة تضلّعه باللغة العربيّة، وسعة اطلاعه على أحاديث المعصومين عليهم السلام، ودقّة تفقّهه كانت واضحة للعيان، ففي اللغة العربيّة أبدع في الشعر والنثر، وكأنّ اللغة طوع أنامله، ونظم الشعر على لسانه في غاية السهولة، ولا يحتاج إلى تكلّف وتعب، فقد جُمعت أكثر أشعاره في ديوان ناهز العشرين ألف بيت، معظمه في مدح النبي صلى الله عليه وآله وآله عليهم السلام، وله منظومات عدّة أخرى في المواريث والزكاة والهندسة وتاريخ الأئمةّ، ومن شعره العجيب قصيدة محبوكة الأطراف الأربعة؛ منها:

فإنْ تخف في الوصف من إسراف ... فلذ بمدح السادة الأشراف
فخذ لهاشمي أو منافي ... فضل سما مراتب الآلاف
فعلمهم للجهل شافٍ كافي ... فضلهم على الأنام وافي
فاقوا الورى منتعلاً وحافي ... فضلٌ به العدو ذو اعتراف
فهاكها محبوكة الأطراف ... فنٌ غريب ما قفاه قاف[1]

وممّا امتاز به الشيخ الحرّ حافظته القويّة التي جعلته يتفوّق على كثير من العلماء، وكان لها الدور الكبير في إنجاز أعماله الموسوعيّة وكتبه الضخمة؛ خصوصًا كتابه (وسائل الشيعة)، وغيره من تلك الكتب الكبيرة والمهمّة، ويُنقل عن بعض ثقات أحفاده أنّه قال: «**كان الشيخ الحرّ حافظًا لأخبار وسائل الشيعة وأسانيدها**»[2]، علمًا أنَّ أحاديث الوسائل قد تجاوزت خمسةً وثلاثين ألف حديث.

(1) الأميني، عبد الحسين: الغدير في الكتاب والسنة، ط3، بيروت، 1387هـ ج11، ص336.
(1) العامليّ، أمل الآمل، م.س، ج1، ص147.
(2) الطبسيّ النجفيّ، محمد رضا: ذرايع البيان في عوارض اللسان، النجف الأشرف، مطبعة النعمان، 1377هـ ص174.

وقد نقل المحقّق السيّد أحمد الحسينيّ أنّه رأى على ظهر نسخة مخطوطة من المجلد الثالث من كتاب وسائل الشيعة، كُتبت قريبًا من عصر المؤلّف جملةً؛ مفادها: «كان الشيخ محمّد الحرّ العامليّ يحفظ سبعة آلاف حديث مسندة، وثمانين ألف مرسلة، وخمسة وثمانين ألف مسألة، وخمسة وثمانين ألف بيت من الشعر، وستّة آلاف وتسعمئة وخمسين اسمًا من أسماء رواة الحديث». وكلّ هذا ليس مستغربًا، فطالما كان حافظًا لموسوعة الوسائل بأحاديثها وأسانيدها، بل إنّ الشيخ خلف بن عبد علي آل عصفور البحرانيّ؛ وهو ابن أخ صاحب الحدائق، وأحد اثنين، كتب المحدّث البحراني لهما إجازته المعروفة بـ(لؤلؤة البحرين في الإجازة لقرتَي العين) توفّي سنة 1208هـ، نُقل عنه أنّه كان حافظًا لكتاب وسائل الشيعة بكامله عن ظهر قلب[1]، وأمثال هؤلاء في التاريخ قليل، بل نادر.

2. إسهاماته في مجال العلوم الإسلاميّة:

إنّ أبرز ما امتاز به الشيخ الحر من إبداع على الساحة العلمّية كان- حسب اطّلاعي القاصر- في أمور عدّة:

أ. الجواهر السَنيّة في الأحاديث القدسيّة:

هو أوّل مَنْ كتب وجمع الأحاديث القدسيّة في كتاب اسماه بـ(الجواهر السَنيّة في الأحاديث القدسيّة) وفرغ من تأليفه سنة 1056هـ وكان عمره حينها ثلاث وعشرون سنة[2]. قال في مقدّمته: «... وهي المشهورة

(1) انظر: البلاديّ البحرانيّ، علي: أنوار البدرين في تراجم علماء القطيف والإحساء والبحرين، قم المقدّسة، مكتبة السيّد المرعشيّ النجفيّ، 1407هـ ص204؛ موسوعة طبقات الفقهاء، إعداد: اللجنة العلميّة في مؤسّسة الإمام الصادق عليه السلام، إشراف: جعفر السبحاني، ط1، قم المقدّسة، 1419هـ ج13، ص255.

(2) انظر: العامليّ، أمل الآمل، م.س، ج1، ص141.

بالأحاديث القدسيّة غير أنّي لم أجدها مجموعةً في كتاب، ولا تعرّض لتأليفها في ما أعلم أحد من الأصحاب...»[1].

ب. الصحيفة السجّاديّة الثانية:

من بركات الإمام الرابع من أئمّة أهل البيت عليهم السلام، علي بن الحسين زين العابدين السجّاد عليه السلام، صحيفةٌ جَمعت جملةً من أدعيته المباركة، وعرفت بزَبور آل محمد عليهم السلام، وبإنجيل أهل البيت عليهم السلام؛ لما اشتملت عليه من أدعية ومناجات كان الإمام عليه السلام يناجي بها ربّه تعالى، ولتلك الصحيفة مكانة مرموقةٌ عند المسلمين عامّةً وذرّيّة النبي صلى الله عليه وآله خاصّةً.

ولأنّ ما سُمع وحُفظ عن الإمام زين العابدين عليه السلام لم تحوِه تلك الصحيفة المباركة، ولأنّ الشيخ الحرّ متتبّع لكلّ ما صدر عن آل البيت عليهم السلام من أحاديث وكلمات وأدعية وحِكم وغيرها، وقد اجتمع عنده عدد من الأدعية، فقد ارتأى جَمْعها في صحيفة مستقلّة، كانت الثانية بعد الأولى التي وصلتنا من طريق الإمام الصادق عليه السلام، عن أبيه الإمام الباقر عليه السلام، عن أبيه الإمام السجّاد عليه السلام، وكذلك رواها الشهيد يحيى بن زيد عن أبيه زيد الشهيد (رضي الله عنهما) عن أبيه السجّاد عليه السلام.

فكان الشيخ الحرّ بهذا العمل أوّل من فتح هذا الباب لجمع أدعية الإمام عليه السلام في صحف مستقلّة، وتوالت من بعده هذه الصحف، فجمع الشيخ الفاضل الميرزا عبد الله بن عيسى الأصفهانيّ المعروف بالأفندي، صاحب (رياض العلماء) صحيفةً ثالثة. وجمع الشيخ المتتبّع الميرزا حسين النوري صاحب (مستدرك الوسائل) صحيفةً رابعة. وجمع العلامة السيّد محسن الأمين العامليّ صاحب (أعيان الشيعة) صحيفةً خامسة. وجمع الباحث الشيخ محمد صالح المازندرانيّ الحائريّ صحيفةً سادسة.

(1) الحرّ العامليّ، محمد بن الحسن: الجواهر السَنيّة في الأحاديث القدسيّة، ط1، بيروت، 1302هـ ص4.

ج. أمل الآمل:

إنّ كتب تراجم العلماء تُحظى بعناية خاصّة بين الأصحاب؛ وذلك لما تشتمل عليه من فوائد جليلة وسِيَر نبيلة، فهي في الوقت الذي تعرّفنا فيه على تاريخ مفعم بالمفاخر وزاخر بالمخلصين، تحفظ لنا تراثًا غنيًا في شتّى العلوم والفنون.

ومن الكتب التي ذاع صيتها واشتهر اسمها كتاب (أمل الآمل)؛ فإنّ الشيخ الحرّ قد أتعب نفسه الشريفة في البحث عن علماء الطائفة من أهل جبل عامل وغيرهم.

يقول رَحِمَهُ اللَّهُ في الفائدة التاسعة من خاتمة الكتاب: «اعلم أنّي في السنّة التي قدمت فيها المشهد الرضويّ؛ وهي سنة 1073هـ، وعزمت على المجاورة به والإقامة فيه، رأيت في المنام كأنّ رجلًا عليه آثار الصلاح يقول لي: لأي شيء لا تؤلِّف كتابًا تسمّيه أمل الآمل في علماء جبل عامل؟ فقلت له: إنّي لا أعرفهم كلّهم، ولا أعرف مؤلّفاتهم وأحوالهم كلّها، فقال: إنّك تقدر على تتبّعها واستخراجها من مظانّها، ثمّ انتبهت فتعجّبت من هذا المنام، وفكّرت في أنّ هذا بعيد من وساوس الشيطان، ومن تخيّلات النفس، ولم يكنْ خطر ببالي هذا الفكر من قبل أصلًا، فلم ألتفت إلى هذا المنام؛ فهو ليس بحجّة شرعًا، ولا هو مرجّح لفعل شيء أو تركه، فلم أعمل به مدّة أربع وعشرين سنة؛ لعدم الاهتمام بالمنام؛ وللاشتغال بأشغال أخرى، ثمّ خطر ببالي أنْ أفعل ذلك لأسباب كثيرة...»[1].

وقال في مقدّمة الكتاب: «قد خطر في خاطري وبالي، ومرَّ بفكري وخيالي، أنْ أجمع علماء جبل عامل ومؤلّفاتهم وباقي علمائنا المتأخّرين ومصنّفاتهم؛ إذ لم أجدهم مجموعين في كتاب، وإنْ وُجد بعضُهم في كتب الأصحاب...»[2].

(1) الحرّ العامليّ، أمل الآمل، م.س، ج2، ص370.
(2) م.ن، ج1، ص3.

وقد قسَّم الكتاب إلى قسمين: الأوّل أسماه: (أمل الآمل في علماء جبل عامل)، واشتمل على ما يزيد عن مئتي ترجمة، والقسم الثاني أسماه: (تذكرة المتبحّرين في علماء المتأخّرين)، واشتمل على ما يزيد على ألف ومئة ترجمة، وهو بهذا التفكيك بين علماء بلده وغيرهم يكون أوّل مَنْ قام بهذا العمل من علماء الشيعة.

كما وذكر جملة أسباب دعته إلى تقديم علماء جبل عامل على غيرهم؛ منها:

- قضاء حقّ الوطن.
- دخول جبل عامل في الأرض المقدّسة أو الاتّصال بها.
- أقدميّة تشيّع أهالي جبل عامل بالنسبة إلى غيرهم.
- كثرة مَنْ خرج من جبل عامل من العلماء والفضلاء والصلحاء وأرباب الكمال.
- كثرة مَنْ دُفن فيها من الأنبياء عليهم السلام والأوصياء عليهم السلام والعلماء والصلحاء[1].

وعلى كلّ حال، فإنّ كتاب «**أمل الآمل**» قد نال إعجاب وتقدير العلماء والمحقّقين ممّن عاصر الشيخ الحرّ، وممّن جاء مِن بعده، وأصبح مصدرًا يعتمدون عليه إلى عصرنا الحاضر، ومرجعًا يرجع إليه كلُّ مَنْ يبحث في تراجم العلماء والأدباء المتقدّمين مِن بعد الشيخ الطوسي، والمتأخّرين إلى زمن الشيخ الحرّ، ولهذا السبب كان محطّ أنظار كثير من الباحثين والمحقّقين، ولأهمّيّة الكتاب وموضوعه انبرى جمع من العلماء لكتابة حواشي وتعليقات وتكميلات وتتميمات ومنتخبات وغير ذلك من الأعمال العلميّة على كتاب أمل الآمل حتّى غدا موسوعةً ضخمة، ولو جمعت هذه الأعمال كلّها مع الأصل لكانت مرجعًا للعلماء والباحثين لا يُستغنى عنه.

(1) انظر: الفائدة السابقة من المقدّمة، ص11.

د. الفصول المهمّة:

عاش الشيخ الحرّ في عصر كان يشهد تنافسًا شديدًا بين مدرستين؛ هما:

- مدرسة الأخباريّين.
- مدرسة الأصوليّين.

وهذا الانقسام كان قبل الشيخ الحرّ بأكثر من نصف قرن من الزمن، وكان على رأس المدرسة الأولى المحدّث الاسترابادي (ت: 1033هـ) المعروف بشدّته على خصومه من المدرسة الأخرى، حيث كان كلّ فريق يتصدّى للآخر وينتصر لمدرسته، وكان على رأس المدرسة الثانية الفاضل التوني (ت: 1071هـ)؛ وهو معاصر للشيخ الحرّ، فقد ناقش بدقّة وموضوعيّة أفكار المحدّث الاسترابادي، ومن معه، في كتابه (الوافية في أصول الفقه).

وممّن نُسب إلى مدرسة الأخباريّين، كان الشيخ الحرّ، ولكنّه لم يكنْ متطرّفًا في آرائه، ولا متشددًا في أفكاره، في الوقت الذي انتصر للخطوط العريضة في المدرسة الأخباريّة، انتقد حدّة خطاب الاسترابادي، ورفض شدّة عباراته اللاذعة تجاه خصومه، بل كان معتدلًا غاية الاعتدال، وردّ بالدليل والبرهان، حتّى اعترف له أقطاب المدرستين بالانصاف ورفع الخلاف، فطلب منه جماعة من الفضلاء أنْ يكتب كتابًا يسكب فيه أفكاره المعتدلة بأسلوبه المنصف وبلغته المتّزنة، فكتب (الفصول المهمّة في أصول الأئمّة)، وقسّمه إلى خمسة أنواع:

- الأوّل: الكلّيّات المتعلّقة بأصول الدّين وما يناسبها.
- الثاني: الكلّيّات المتعلّقة بأصول الفقه وما يناسبها.
- الثالث: الكلّيّات المتعلّقة بفروع الدّين.
- الرابع: الكلّيّات المتعلّقة بالطبّ وما يناسبها.
- الخامسة: نوادر الكلّيّات.

وقدّم مقدّمة اشتملت على اثنتي عشرة فائدة؛ تبرّكًا بهذا العدد؛ كما هي عادته، في أغلب كتبه ومؤلّفاته، وقد فرغ من تأليفه سنة 1097هـ ووصفه في أمل الآمل بقوله: «فيه أكثر من ألف باب، يفتح من كلّ باب ألف باب»[1].

ولم يسبق الشيخ الحرّ أحدٌ في التأليف في موضوع كلّيّات أصول الفقه المنصوصة، وما كتبه معاصره الفيض الكاشاني، والمعروف باسم (الأصول الأصيلة) مختلف في الشكل والمضمون، عمّا كتبه الشيخ الحرّ، والظاهر أنّه لم يكن مطلعًا على كتاب الفيض ولا عالمًا به.

نعم، بعد الشيخ الحرّ كتب السيد عبد الله شبّر كتابه (الأصول الأصيلة)، ولكنْ بقي كتاب الشيخ الحرّ محطّ نظر واهتمام العلماء في حقله، وهذا واضح من كثرة نسخه وتعدّد طبعاته.

هـ. بداية الهداية:

ذكره في أمل الآمل؛ بقوله: «... ورسالة في الواجبات والمحرّمات المنصوصة من أوّل الفقه إلى آخره، في نهاية الاختصار، سمّاها (بداية الهداية)، وقال في آخرها: فصارت الواجبات ألفًا وخمسمئة وخمسة وثلاثين، والمحرّمات ألفًا وأربعمئة وثمانية وأربعين»[2]، وفرغ من تأليفه سنة 1091هـ.

وواضح من اسمه ووصفه أنّه كتاب فقهيّ مختصر يتضمّن المنصوص عليه من الواجبات والمحرّمات، مع ذِكر اليسير من المستحبّات والمكروهات والمباحات؛ حسب ما جاء في مقدّمة الكتاب[3]، كما وأشار في تلك المقدّمة إلى أنّه لم يسبقه أحد إلى التأليف في هذا الموضوع[4].

(1) الحرّ العامليّ، أمل الآمل، م.س، ج1، ص144.
(2) م.ن، ج.ن، ص.ن.
(3) انظر: الحرّ العامليّ، محمد بن الحسن: بداية الهداية، تحقيق: محمد علي الأنصاريّ، قم المقدّسة، نشر مؤسّسة أهل البيت عليهم السلام، 1405هـ ص3.
(4) انظر: م.ن، ص.ن.

و. جدول كبير في المحرّمات الرضاعيّة وغيرها:

قال العلامة السيّد شهاب الدين المرعشيّ النجفيّ قدس سره: «الظاهر أنّه أوّل مَنْ ابتكره في هذا الفنّ في ما أعلم»[1].

هذا وله آراء كثيرة مبثوثة في كتبه ومؤلّفاته كان له السبق والريادة فيها، فلم يسبقه أحد قبله، وتبعه الكثير من بعده:

- منها: توثيقه لجميع رجال تفسير علي بن إبراهيم القمي، وكتاب كامل الزيارات لجعفر بن محمد بن قولويه، حيث ذكر ذلك في خاتمة الوسائل بقوله: «... وقد شهد علي بن إبراهيم -أيضًا- بثبوت أحاديث تفسيره، وأنّها مرويّة عن الثقات عن الأئمّة عليهم السلام، وكذلك جعفر بن محمد بن قولويه، فإنّه صرّح بما هو أبلغ من ذلك في أوّل مزاره»[2].
- ومنها: مسألة الجمع بين الفاطمتين، فقد ذكر المحقّق البحرانيّ في حدائقه من خصائص السيّدة فاطمة عليها السلام: «... الرابع: عدم جواز الجمع بين ثنتين من بناتها في النكاح... وهذه المسألة لم يجرِ لها ذِكر في كلام أصحابنا، متقدّيمهم ومتأخّريهم، وإنّما اشتهر الكلام فيها في أعصارنا هذه من زمن الشيخ الحرّ العامليّ، حيث اختار القول بما دلّ عليه ظاهر الخبر من التحريم...»[3].

اكتفي بما ذَكرت من تاريخ هذين العَلمَين وإبداعاتهما الفكريّة والعلميّة، ولعلّي بذلك قد وفّقت لإبراز بعض فضائلهما وآداء بعض حقوقهما علينا.

(1) الحرّ العامليّ، أمل الآمل، م.س، ج1، ص33، المقدّمة.
(2) الحرّ العامليّ، خاتمة وسائل الشيعة، م.س، ج30، ص202.
(3) البحرانيّ، يوسف بن أحمد: الحدائق الناضرة في فقه العترة الطاهرة، قم المقدّسة، مؤسّسة النشر الإسلاميّ، 1406هـ ج23، ص108.